لسان الحال ٣٠ كانون الثاني ١٩٦٦

لتكن ذكرى ميشال شيحا ذكرى تأمل وحافز عمل

بقلم الأستاذ ميشال أسمر

للندوة اللبنانية، كل يوم ثلثاء، لقاء مع المستمعين عبر الإذاعة اللبنانية. وأول أمس الثلثاء كان حديث الندوة الذي ألقاه مؤسسها الأستاذ ميشال أسمر عن ميشال شيحا بمناسبة مرور ١٢ سنة على وفاته.

وفي ما يلي نص الحديث :

أيها المستمعون الأحباء،

في مثل هذا الليل، ليل السابع والعشرين من كانون الأول عام ١٩٥٤ ، كان كبير من لبنان يقضي ليله قبل الأخير على هذه الفانية في منزله باليرزه. وعلى تلك الهضبة من لبنان الذي أحب، اغترب عنا صبيحة التاسع والعشرين بين حسرة الأهل وألم مواطنيه أجمعين. وسرى الخبر كالبرق بأن عمارة فكرية جبارة قد انهارت في الصرح الوطني.

هو أن ميشال شيحا، الراحل ذاك اليوم، كان قد عاش سنيه الأربعين الواعية الناشطة يعمل بدون انقطاع كي يلملم شتات تاريخ وطنه من بطون الكتب ويتفاعل مع أحداث الساعة اللبنانية والعربية والإقليمية والدولية، فينشيء مدرسة فكرية تبين بوضوح معالم الماضي المجيد لهذا الوطن وتركز مقومات حاضره الصاخب وترسم الخطوط الأساسية لغده المشرق. هذه المدرسة كان ميشال شيحا واضع الحجر الأساس فيها، ثم أشرف بنفسه وجهده المتواصل على إقامتها دارا ومختبرات ونوافذ إشعاع. قلنا أنها كانت مدرسة فكرية، وهكذا استمرت حتى غياب منشئها. فميشال شيحا شاء أن يبقى المعلم الباحث والموجه في آن واحد. عب من الكتب والحياة ما استطاع الى ذلك سبيلا، ثم نقل الى قرائه والى المستمعين اليه في حلقاته الخاصة وفي المجتمعات العامة ما أكسبته إياه الأيام من معرفة وتجربة. والى ذلك، جمع حوله فريقاً من المعنيين بالشأن اللبناني سياسة واقتصاداً واجتماعاً وعمراناً في مختلف الميادين الثقافية والفنية بغية ايقاظهم على هذا الشأن وحثهم على العناية به على الصعيد العملي. وهكذا كان لمدرسته المريدون العديدون والتلامذة الواعون. ونحن الذين نرافق الحياة الوطنية منذ ربع قرن تقريباً، نشهد بأن معظم الذين تولوا قيادات عامة في هذا البلد غالباً ما كانوا يستمدون تصاميمهم البناءة من الينبوع الذي منه يستقون، من تفكير ميشال شيحا الصائب. وغائبنا الكبير حرص على أن يبقى فوق المعركة، يشرف على الأمور بصفاء ذهن وتجرد كان بالإمكان الا يتوافرا له لو خاض هذه المعركة وترك لغبارها أن يلبد جو تفكيره. غير ان الفارس الأصيل لم يكن ليذهل لحظة عما يجري في ميدان الصراع فتراه يتدخل هنا ويشجع هناك ويغضب مؤنباً في كل مرة كان الحاكم أومعاونوه يزيفون عن الطريق القويم لمصلحة لبنان.

ولذا لا يزال لبنان يفتقد ميشال شيحا كلما ألمت به أزمة أو دخل في مأزق. ولكن إن كان الرجل الحي قد غاب، فقد بقيت لنا خطوط تفكيره الكبرى. بقيت لنا في كتبه التي أصدرها في حياته، وفي محاضراته التي ألقاها من على منبر الندوة ونشرناها له في حينه، وهي باقية أيضاً في المصنفات التي نشرت له بعد الوفاة تجمع في دفاترها ما كان يسجله يوميا في جريدته "له-جور" طوال ربع قرن في كل حقل من حقول الحياة العامة في لبنان وما يبقى نبراساً هادياً لكل راغب في السبيل السوي.

ويطيب لنا في هذه الذكرى الثانية عشرة لوفاة كبير مفكرينا أن نعيش هنيهة معكم، أيها المستمعون الأحباء، في الجو العام الدافىء المشجع الذي يخلقه دوما في النفوس والأذهان ما كتبه ميشال شيحا عن لبنان وفيه.

قال، رحمه الله : مما لا ريبة فيه أن بلادنا الصغيرة هي إحدى أجمل وأحلى بلدان الأرض قاطبة. أما ما هو أقل جمالا فهو ما يلاحظ فيها من نظام أو فوضى بشرية، بل هو الحاضرة الحية ، وانعدام الهندسة في الأدمغة وفي العمارات على السواء. فالأولى بنا، في الحيز الذي نعيش فيه، أن ندرك بادىء بدء أية نعمى لهذا الجيل علينا. فهذا الجيل ، وقد بات مجرد ضاحية، بات علينا بعد اليوم ولأسباب شتى أن نعود فنرقاه، بدلا من أن ننحدر منه. وعلينا بوجه عام أن نتعلق بالتربية وأن نرد الى الأرض حظوتها، وأن نوثر الفلاح بالحب، ونحب معه الأشجار الحالية، ورقرقة الينابيع والحقل والحديقة، وأن ننغمس من جديد في سناء هذه الطبيعة التي تصدفنا عن سبل الصغارات.

بهذا النهج وحسب نستطيع أن نلبث من نحن دون أن نضل سوي السبيل. نحن، في الواقع، نعرف بأية نظم يرتهن غدنا. وهذه النظم تفرض بيئة طبيعية لا تقود الى الوهن. لا شك أن صعابنا جسيمة وإنها تبتغي لتذليلها جميع وسائل النهي والوجدان. فعندنا تتنازع وفرة من أفكار ونظريات وأوضاع، وعندنا كثيرون ممن دخل في روعهم أنهم إنما كانوا لتعقد لهم ألوية القيادة، بحيث أن الغرب يتطلعنا منذهلا على أننا بلاد قادة ولا جيوش. وعلينا الى ذلك أن نجابه شتى المخاطر المترسخة فينا ، أو على تخومنا، أو ما وراء البحار. أما الصعاب فإننا لنطوعها إذا نحن قابلناها بسيها من العزم والبأس. وما نبتنيه، على الرغم من كل شيء ، ليس نزلا للسابلة، ولا متجرا للتاجر، ولا للنزيل والمهاجر مكتب جوازات. بل إن ما نبتنيه هو، على يد لبنان اليوم ، وطن مضياف وانساني.

وقد ينتابنا أحيانا شعور بالإرتباك والخشية، حيال تعقد العوامل القومية والدولية التي تهيمن على مصيرنا. لكن لنا مما جزناه وخلفناه من مؤتلق ماضينا ما هو كفيل بتعهد إيماننا.

والطبيعة ذاتها التي تطالعنا بوجه وادع وقدير، لهي دوما على أهبة أن تشرع ممراتها وتذرونا ذرو الرياح. منذ سحيق العصور تتدافعنا من قارة الى أخرى قوة دافعة ، فتدفع معنا المطامح والأحلام. حين أن قوة مضادة تجتذب دوما الى ديارنا أشكالا بشرية دائبة الترحال. وهكذا سيكون الى أبعد أباعد الغد، ثمة ،تفسيرا لذلك، الطريق والمعتقدات والجزع الديني، وثمة، الأهواء اللامرورية الغليل. وكما نكثر الحركة على الأرض، لا بد أن نثير في السماء جلبة ولا أكثر.

لقد تقضت قرون على محننا ورزايانا. وولى الفاتحون وفتوحاتهم وبقينا نحن. فنحن المكان الذي يتبيأ فيه البشر من أنّى أتوا، وفيه تتصافح المدنيات، كما تتبادل فيه المعتقدات واللغات والطقوس شعائر الإحترام. إنه بلد متوسطي قبل كل شيء. لكنه كالبحر المتوسط ذاته مرهف التحسس بالشعر الكوني. إن لبنان اليوم، لبنان المستقبل الحصين الذي يخص أبناءه، كل أبنائه على السواء، إنما له وعليه أن يعلن حقه بالحياة فله أكثر من أي وقت مضى مبرر لوجوده ونحن، لبنانيي الجبل والسهل ومدن الشط والأطراف، يتوجب علينا أن نتفانى في خدمته، وأن تخوض غمرات القتال اذا اقتضى، ارادة ان نزفه الى لبنانيي الغد موفور المتعة والكرامة.

أيها المستمعون الأحباء،

ختاماً لحديثنا الندوي هذا المساء، نود لو نعلن أمراً ونعرب عن تمن. على تقليد نحافظ عليه منذ اثنتي عشرة سنة في إحياء ذكرى ميشال شيحا، أصدرت منذ أربع سنوات ترجمة باللغة العربية للمحاضرات التي ألقاها بالفرنسية على منبرنا الغائب الكبير بين ١٩٤٨ و ١٩٥٣ ، ظهرت في كتاب عنوانه "لبنان في شخصيته

وحضوره" أحكم ديباجته قلم جميل هو قلم الأديب فؤاد كنعان. وفي العام ١٩٤٦ ، نشرت النص الأصلي لهذه المحاضرات بعنوان :

“ Visage et Présence du Liban”

وفي الأسبوع القادم ستصدر الترجمة الإنكليزية لهذا الكتاب بعنوان :

“ Lebanon at home and abroad “

وقد قام بها ليو ارنولد وجان مونتيفو. والكتاب مهدى الى صاحب الفخامة الأستاذ شارل حلو، رئيس الجمهورية، وقد وضع مقدمته معالي الأستاذ فيليب تقلا.

هذا ما نعلنه،

وأما التمني فهو يعبر عن رجاء بأن لا يغيب عندنا سيد الا ويكون مثله قد فعل في قلوب المواطنين في لبنان، فيقوم سيد للفكر بعده يتسلم الشعلة فيواصل اطلاقها وإرسالها هديا وعملا وجهادا في خدمة الوطن.

والى الثلاثاء القادم، والسلام عليكم.

ميشال أسمر